

دُولَةُ الْكُوفَةِ

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التأريخية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها العظيم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد الثاني . شهر رمضان . ١٤٢٢هـ / آب - ٢٠١٢م



مرقد الشهيد مسلم بن عقيل عليه السلام سنة ١٩٣٥م

٢



دُولَةُ الْكُوفَةِ
أَمَانَةُ مَسْجِدِ الْكُوفَةِ
وَالْمَزَارُّ الْمَلَكِيَّةُ

الشرف العام
السيد موسى تقى الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبورى

ابن مسعود

داعية التفسير الأثري عند أهل الكوفة*

الدكتور سيروان عبد الزهرة الجنابي

كلية الآداب / جامعة الكوفة

معاصرته شخصياً و مباشرته بنفسه للرواية بلا مسافة فاصلة لا من حيث الزمن ولا من حيث الحلقـة الروائية، إذ تـعد مساحة احتمال التـحمل أو السـهو عند ابن مسعود لهـذه الدـواعـي، من هـنا تكون روایـة التـفسـيرـية عـلـى وـقـقـ هذه الرـؤـيـا عـبـارـة عـن مـقـولـات بـيـانـيـة غـايـة في الدـقةـ والمـتـانـةـ.

والأـظـهـر لـديـنـا أنـعـلاقـةـ ابنـمـسـعـودـ بـالـنـصـ القرـآنـيـ هيـ عـلـاقـةـ عـشـقـيـةـ ضـارـبـةـ بـالـقـدـمـ ذـكـرـ بـاـنـهـ قدـ عـلـقـ بـالـنـصـ مـذـ لـحـظـةـ نـزـولـهـ؛ وـأـدـلـ ماـ يـشـيرـ إـلـىـ هـذـاـ التـقـرـيرـ أـنـ يـنـقـلـ بـاـنـ «ـابـنـ مـسـعـودـ أـوـلـ مـنـ جـهـهـ بـالـقـرـآنـ بـمـكـةـ، وـذـكـرـ أـنـ اـجـتـمـعـ يـوـمـاـ أـصـحـابـ رـسـوـلـ اللهـ فـقـالـوـاـ: وـالـهـ مـاـ سـمـعـتـ قـرـيـشـ هـذـاـ القـرـآنـ يـجـهـرـ بـلـهـابـهـ قـطـ فـمـنـ رـجـلـ يـسـمـعـهـمـوـهـ؟ـ فـقـالـ عبدـ اللهـ بـنـ مـسـعـودـ: أـنـاـ قـالـواـ إـنـاـ نـخـاشـاهـ عـلـيـكـ، إـنـماـ نـرـيـدـ رـجـلـاـ لـهـ عـشـيرـةـ يـمـنـعـونـهـ مـنـ القـوـمـ إـنـ أـرـادـوهـ.ـ قـالـ: دـعـونـيـ، فـإـنـ اللهـ سـيـمـنـعـنيـ وـغـداـ اـبـنـ مـسـعـودـ حـتـىـ أـتـيـ المـقـامـ فـيـ الضـحـىـ وـقـرـيـشـ فـيـ أـنـدـيـتهاـ، حـتـىـ قـامـ عـنـدـ المـقـامـ، ثـمـ قـرـأـ بـسـمـ اللهـ الرـحـمـنـ الرـحـيمـ: الرـحـمـانـ عـلـمـ الـقـرـآنـ..ـ ثـمـ اـسـتـقـبـلـهـ يـقـرـأـهـاـ، وـتـامـلـوـهـ فـجـعـلـوـهـ يـقـلـوـنـ: مـاـذاـ قـالـ اـبـنـ اـمـ عـبـدـ؟ـ ثـمـ قـالـواـ: إـنـهـ لـيـتـلـوـ بـعـضـ مـاـ جـاءـ بـهـ مـحـمـدـ، فـقـامـوـاـ إـلـيـهـ فـجـعـلـوـهـ يـضـرـبـوـنـ فـيـ وـجـهـ، وـجـعـلـ يـقـرـأـ حـتـىـ بـلـغـ مـنـهـ مـاـ شـاءـ اللهـ أـنـ يـبـلـغـ، ثـمـ أـنـصـرـفـ إـلـىـ أـصـحـابـهـ وـقـدـ أـشـرـوـاـ فـيـ وـجـهـ، فـقـالـواـ لـهـ: هـذـاـ الـذـيـ خـشـيـنـاـ عـلـيـكـ.ـ فـقـالـ: مـاـ كـانـ أـعـدـ اللهـ أـهـوـنـ عـلـيـ مـنـهـ الـآنـ، وـلـئـنـ شـتـئـمـ لـأـغـادـيـنـهـ بـمـثـلـهـاـ غـدـاـ،ـ قـالـواـ: لـاـ،ـ حـسـبـكـ،ـ قـدـ أـسـمـعـتـهـ مـاـ يـكـرـهـونـ؟ـ أـنـ أـدـنـىـ تـامـلـ فـيـ هـذـاـ الـرـوـاـيـةـ التـارـيـخـيـةــ الـتـيـ أـقـلـ مـاـ يـمـكـنـ أـنـ تـوـصـفـ بـاـنـهاـ تـمـثـلـ عـظـمـةـ الـرـجـلـ إـزـاءـ إـثـيـاتـ الـحـقـ وـالـثـبـاتـ عـلـيـهــ يـوـصـلـ إـلـىـ قـنـاعـةـ تـامـةـ بـاـنـ اـبـنـ مـسـعـودـ كـانـ قـدـ اـبـتـاعـ حـيـاتـهـ بـلـ تـرـددـ إـزـاءـ شـيـوعـ وـحـيـ السـمـاءـ عـلـىـ آذـانـ الـمـنـكـرـيـنـ لـهـ وـلـمـ يـكـ يـخـشـيـ أـيـ ضـرـرـ حـتـىـ لـوـ وـصـلـ الـأـمـرـ إـلـىـ أـنـ يـفـقـدـ حـيـاتـهـ بـكـامـلـهـ فـالـأـمـرـ لـاـ يـعـنـيـ بـقـدـرـ مـاـ يـعـنـيـ أـنـ يـتـلـوـ كـلـمـاتـ السـمـاءـ عـلـىـ شـفـتـيـهـ تـرـئـمـاـ لـيـرـيـ الـكـافـرـيـنـ نـورـ الـيـقـينـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـهـ كـانـ أـعـمـىـ الـبـصـرـ،ـ إـذـ يـؤـثـرـ عـنـ

إـذـ كـانـ الـعـلـمـيـةـ التـفـسـيرـيـةـ هيـ عـبـارـةـ عـنـ تـوـظـيفـ قـدـرةـ الـعـقـلـ الـبـشـرـيـ لـاستـنـاطـقـ مـضـامـينـ النـصـ الـقـرـآنـيـ فـإـنـ هـذـاـ الـمـنـطـلـقـ لـأـدـاءـ تـلـكـ الـعـلـمـيـةـ لـاـ بـدـ لـهـ مـنـ أـنـ يـقـومـ عـلـىـ جـمـلـةـ مـنـ الـمـقـومـاتـ الـتـيـ تـؤـهـلـ دـلـالـتـهـ التـفـسـيرـيـةـ الـمـسـتـبـنـتـةـ مـنـ النـصـ مـنـ الدـخـولـ إـلـىـ نـطـاقـ الرـضـاـ وـحـيـزـ الـقـبـولـ؛ـ فـإـنـاـ كـانـ الـأـمـرـ كـذـلـكـ فـإـنـهـ لـاـ بـدـ مـنـ القـوـلـ بـاـنـ مـنـهـجـ التـفـسـيرـ الـأـثـرـيـ هوـ أـحـدـ اـكـبـرـ الـمـنـافـذـ التـفـسـيرـيـةـ الـتـيـ تـعـيـنـ مـتـأـمـلـ النـصـ لـبـلـوغـ غـايـةـ مـنـ ذـلـكـ التـامـلـ؛ـ إـذـ لـاـ يـسـعـ أـيـ مـفـسـرـ مـنـ أـنـ يـدـلـيـ بـدـلـوـهـ مـاـ لـمـ يـكـنـ قـدـ اـطـلـعـ أـبـتـءـاـ عـلـىـ مـثـرـيـاتـ الـمـنـهـجـ الـأـثـرـيـ فـيـ مـيـدانـ الـآـيـةـ الـتـيـ يـبـتـغـيـ تـفـسـيرـهـ؛ـ إـذـ يـعـدـ الـأـثـرـ فـيـ التـفـسـيرـ مـسـتـنـداـ رـسـمـيـاـ مـنـ مـسـتـنـدـاتـ الـبـيـانـ النـصـيـ لـمـفـسـرـ النـصـ؛ـ ذـلـكـ بـاـنـ الـمـنـهـجـ الـأـثـرـيـ هوـ كـلـ جـهـ مـبـذـولـ لـبـيـانـ مـعـنـيـ قـرـآنـيـ اوـ اـسـتـجـلـاءـ دـلـالـةـ نـصـيـةـ مـنـ التـعـبـيرـ الـمـقـدـسـ صـادـرـ عـنـ الرـسـوـلـ وـالـأـئـمـةـ اوـ الصـحـابـةـ اوـ الـتـابـعـيـنـ؛ـ لـأـنـ الـأـثـرـ فـيـ التـفـسـيرـ يـعـنـيـ كـلـ مـاـ وـرـدـ عـنـ الرـسـوـلـ وـآلـهـ وـالـصـحـابـةـ وـالـتـابـعـيـنـ مـرـفـوـعـاـ إـلـيـهـ،ـ وـهـذـاـ الـمـنـهـجـ التـفـسـيرـيـ مـعـتـمـدـ فـيـ سـائـرـ الـمـنـاهـجـ التـفـسـيرـيـةـ الـأـخـرـىـ لـأـنـهـ يـمـثـلـ الـخـطـوةـ الـأـوـلـىـ فـيـ عـالـمـ التـفـسـيرـ الـقـرـآنـيـ تـارـيـخـيـاـ.

فـإـذـاـ مـاـ سـلـمـ لـنـاـ ذـلـكـ فـإـنـهـ يـمـكـنـ أـنـ تـنـفـتـحـ بـالـقـوـلـ لـنـقـرـ بـاـنـ عـلـمـ الـكـوـفـةـ كـانـوـاـ مـنـ أـوـاـلـ الـصـحـابـةـ الـذـيـنـ اـنـتـهـجـوـ مـسـلـكـ التـفـسـيرـ بـالـأـثـرـ وـكـانـ رـائـدـهـمـ فـيـ هـذـاـ النـسـخـ التـفـسـيرـيـ هوـ اـبـنـ مـسـعـودـ مـقـرـئـ أـهـلـ الـكـوـفـةـ وـعـالـمـهـ فـيـ التـفـسـيرـ وـدـاعـيـتـهـمـ إـلـىـ ذـلـكـ،ـ إـذـاـ اـتـيـ اـبـنـ مـسـعـودـ هـذـاـ الـمـنـوـالـ الـاسـتـبـيـانـيـ لـإـيـضـاحـ مـكـنـوـنـاتـ النـصـ الـقـرـآنـيـ بـوـصـفـهـ مـنـ روـادـ الـصـحـابـةـ الـذـيـنـ اـخـذـوـنـ عنـ الرـسـوـلـ مـبـاشـرـةـ وـنـقـولـ عـنـهـ عـنـ طـرـيـقـ الـصـلـةـ الـمـبـاشـرـةـ سـمـعـاـ وـرـؤـيـةـ وـمـعـاـصـرـةـ،ـ وـبـهـذـاـ كـانـتـ روـاـيـاتـ الـمـاـثـورـةـ عـنـ الرـسـوـلـ الـأـكـرـمـ صـادـقـةـ وـمـتـحـرـأـةـ الـدـقـةـ لـأـنـهـ لـمـ يـنـقـلـ عـنـ غـيرـهـ بـالـوـسـاطـةـ لـيـحـتـمـلـ مـنـهـ وـرـوـدـ الـخـطاـ بـلـ كـانـتـ روـيـاتـهـ عـنـ

(*) عن: مجلة الأصالة النجفية ع ٢٧ لسنة ١٤٣٢ م ٢٠١١م.

وتقرّعه دلالياً عن طريق التثوير أي أن النص أشبه بالبركان الذي يحتاج إلى من يهيجه حتى ينفجر فكذا الحال للقرآن فإنه ينفجر بالمعرفة على العقل البشري بالنظر فيه والتأمل وإعادة التدبر المرة تلو الأخرى من أجل الوصول إلى نتاج تفسيري ثري يسهم في حل أزمة المجتمعات وما فيها من إشكاليات قائمة منذ نزول النص إلى ما يعاصرنا من حاضر.

وما روي عن ابن مسعود في دعوته لأهل الكوفة لتفسير القرآن: «أنه قال: كان الرجل متى إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن» إن قوله أن الرجل لا يتتجاوز الآيات العشر حتى يعرف ما بهن من معنى ويعمل بهن لدليل إلزامي بنص على أن قراءة القرآن لا يعتد بها إذا كانت عبارة عن لفقة اللسان من دون فهم المعنى أو عمل بذلك المعنى؛ إذ نص ابن مسعود في مقولته هذه صراحة على وجوب تفسير النص أو البحث عن تفسيره من أجل فهمه للوصول بالمحصلة إلى العمل بالنص المعجز لأن قراءة اللسان لفظاً من دون فهم أو تفهم ألفاظه والإطلاع على دواعي تراكيبه والخوض عمقاً وراء معرفة دلالته السياقية والباعث وراء توافق أجزاء النص مع ذلك السياق فإن عدم معرفة هذه الدواعي والاقتصار على قراءة النص تفظفاً فحسب؛ تعد عملية إرهاق لفظي غير مجده إذ لا نفع من القراءة مع عدم الفهم ذلك بأن من أساسيات اللغة هو أن تتكون من الدال والمدلول فإذا لفظ القارئ أو الناطق الدال دون معرفته بالمدلول فإن هذا يعد -والحال هذه- تجزيء للعملية الكلامية بما يفقد غايتها لأن الغاية من الدال (قراءة النص القرآني) هو الوصول إلى المدلول (تفسير النص وفهم معانيه) فإذا توقف الأمر عند حدود الدال عدّمت العلمية الكلامية مرادها وغايتها نهائياً، ولا يعد كلام ابن مسعود وتحليلنا له دعوة إلى الإحجام عن قراءة النص القرآني بقدر ما ينظر إليها بأنها دعوة إلى الإلحاح على قراءة النص وفهم معانيه ليدرك المتلقى ما يقرأ وما يراد منه تحديداً وإلا يبطل اللازم ببطلان الملزم. من هنا نصل إلى ابن مسعود كان على الكعب في نطاق النظر التفسيري وإنه كان يمثل داعية كبرى من دواعي فهم النص المعجز لأهل الكوفة سواء أكان ذلك متجسداً في نتاجه التفسيري الذي نقله عن الرسول الأكرم، أم في مقولاته الداعية إلى فهم النص وضرورة إيصال الدال بمدلوله لكي تتم الغاية من نزول النص على هذه الهيأة الكلامية المعجزة.

ابن مسعود أنه كان ضريراً لا يرى بيد أنه كان أعمى البصر فإنه كان نافذ البصيرة في الحق وفي معرفته بمقولات السماء والدعوة إلى فهمها وتمثلها عملاً ومنطقاً؛ من هنا حق له أن يكون رائد أهل الكوفة في ميدان التفسير بالأثر ذلك بان الكوفة تتمتع بمناخ رائق لتلقى العلم والمعرفة وخصوصاً بما يتعلق بالنص المعجز وكل ما يحيط به من قريب أو بعيد. وأما فيما يخص النسق الرُّتبِي من حيث علو المقام في النطاق التفسيري فإن ابن مسعود يعد ثالث مفسر من الصحابة رتبة؛ إذ يرد في هذه المرتبة بعد الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وتلميذه عبد الله بن عباس، ذلك التلميذ النجيب الذي فقه القرآن بما فيه بتلقيه من استاذه الإمام أمير المؤمنين: فـ«أول من تكلم في تفسير القرآن من أصحاب رسول الله (عليه السلام) مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وهو أعلم المسلمين بكتاب الله وتأويله بلا مدافع، بل هو باب مدينة العلم». قال ابن مسعود: إن القرآن نزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وإن علياً عنده من الظاهر والباطن. ثم عبد الله بن العباس حبر الأمة، وترجمان القرآن، ووارث ثلاثي علوم رسول الله، وقد دعا له النبي بقوله: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل» ولذلك كثرت الرواية في التفسير عنه حتى كان ما يقارب النصف من الأحاديث الواردة في التفسير، مستنداً إليه، ثم عبد الله بن مسعود، ذو المقام العالي بين المفسرين، وثاني ابن عباس في كثرة الرواية».

ونحسب أن هذه الرتبة العلمية لابن مسعود في نطاق البيان القرآني تدعو بالضرورة إلى أن يكن داعية أهل الكوفة في الحث والتحضير على فهم القرآن والتعمر في معرفة دلالات ومرادات السماء الكامنة فيه؛ وتأسيسًا على هذا المنطلق فقد أثرَ عن ابن مسعود جملة من المقولات التي حثَ بها على النظر في النص القرآني واستجلاء دلالاته وبيان ما فيه مكتون معرفي قد غاب على الأذهان لا يستظهر إلا باعتماد على النتاج العقلي المسند بالتأريخي أثراً واستيضاحاً وتعضيداً؛ ومن جملة ما نقل عنه أنه قال: «إذا أردتم العلم فاثيروا القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين»، بهذا نفهم أن مناط العلم وموئله إنما هو النظر داخل النص من أجل فهمه وتفسيره للناس، لأن دعوة ابن مسعود بلاحظ فعل الأمر (اثيروا القرآن) فيها دلالة واضحة على أن النص هو مخزون مكتنز من العلوم والمعارف، وإن هذه العلوم إنما تستخرج بفوران النص